

الحُمسُ : بدعُهُم وموقفُ الإسلام منها

الدكتور سليمان بن عبدالله السويكت *

ملخص البحث :

بعد معرفة الأصل اللغوي لكلمة (الحمس)، الذي يعني التشدد في الدين أي (الوثني) والمعنيون بها : هم قريش ، يمضي البحث للإجابة على التساؤلات التالية :

متى بدأ يظهر ذلك التشدد في الدين عند قريش ؟ ومن الذين ساروا في فلکها ووافقوها من القبائل العربية الأخرى؟ وما المبررات والمسوغات التي ساعدتها على تحقيق ذلك؟ وما مظاهر تلك الشدة؟ وما الأهداف التي يُرمى إلى تحقيقها إن كان ثمة أهداف ؟ وما موقف الرسول ﷺ قبل البعثة من بعض ذلك؟ ثم ما موقف الإسلام بعد بعثة الرسول ﷺ من ذلك عامة؟ هذه التساؤلات تمثل الخطوط الرئيسة فيه .

وهو ما ستوضحه الدراسة بإذن الله تعالى .

تكاد كتب معاجم اللغة العربية تتفق على أن معنى (الحُمس) هم المتشددون على أنفسهم في الدين . قال ابن فارس : (حَمَسَ) الحاء والميم والسين أصل واحد

* ليسانر في التاريخ من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سنة ١٣٩٤هـ .

- ماجستير في التاريخ الإسلامي من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٣٩٩هـ .

- دكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٥هـ .

- يعمل الآن أستاذاً مشاركاً في قسم التاريخ بكلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام .

دل على الشدة، و(الحُمس) قریش؛ لأنهم كانوا يتحمسون في دينهم، أي يتشددون^(١).
وقال ابن دريد: اشتقاق (أَحْمَسَ) من قولهم (حَمَسَ) إذا اشتد، وكل شيء
اشتد فقد حَمَسَ، و(الحُمس) قبائل من العرب تشددوا في دينهم، منهم قریش^(٢).
وقال ابن منظور: حَمَسَ الشر اشتد، والتحمس التشدد، والأحمس المتشدد
على نفسه في الدين^(٣).

وعلى هذا المعنى سار الرواة وأهل الأخبار من المؤرخين .
قال ابن حبيب: «فكانت الحُمس قد شددوا على أنفسهم في دينهم»^(٤).
وقال الأزرقى: «وإنما سميت الحُمس حُمساً للتشديد في دينهم، فالأحمسي في
لغتهم المتشدد في دينه»^(٥).
وقال أبو ذر الحثني: «سموا حُمساً لأنهم اشتدوا في دينهم على زعمهم،
مأخوذ من الحماسة وهي الشدة»^(٦).
وروى ابن سعد عن شيخه الواقدي أن «التحمس أشياء أحدثوها في
دينهم تحمسوا فيها، أي شددوا على أنفسهم فيها»^(٧).
وقال بعضهم : الحُمسة الحرمة، وإنما سموا حُمساً لنزولهم بالحرم^(٨).

(١) معجم مقاييس اللغة ١٠٤/٢، مادة (حَمَسَ).

(٢) الاشتقاق ص ٢٥٠.

(٣) لسان العرب ٣٥٧/٧، مادة (حَمَسَ).

(٤) المحبر ص ١٧٩.

(٥) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ١٨١/١.

(٦) شرح السيرة النبوية ص ٦٥.

(٧) الطبقات الكبرى ٧٢/١.

(٨) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة ١٠٤/٢، مادة (حَمَسَ).

وذكر الفاسي أنهم سموا حمساً لشجاعتهم^(١).
أو سموا حمساً لالتجائهم بالحمساء وهي الكعبة، لأن حجرها أبيض إلى
السواد^(٢).

قال ابن إسحاق: «والحمس أهل الحرم»^(٣).
ونسبة الحمس إلى الحرم لا تبتعد كثيراً عن المعنى الأول؛ فبين الحمس
والحرم صلة متينة، فهي تشير إلى الأصل الديني للحمس وإلى ارتباطهم
بالكعبة، وإلى أن الحمس هم نزلاء الحرم^(٤)، من أجل ذلك ظهر التشدد المزعوم
في الدين من قبل هؤلاء النزلاء^(٥).

وعلى أي حال فيظهر من الأقوال السابقة اشتقاق كلمة (الحمس) من
الشدة، وأن (الحمس) هم المتشددون أي على أنفسهم في الدين، وأنهم قريش
ومن وافقهم من القبائل العربية الأخرى كما سنرى إن شاء الله تعالى^(٦).

بداية ظهور الحمس:

أما بداية ظهور قريش بآرائها المتشددة وبدعها التي ابتدعتها في الدين،
وبخاصة ما يتعلق بالحج ومناسكه، التي يمكن أن نسميها (البدع والآراء

(١) شفاء الغرام ٤٣/٢.

(٢) الفيروزآبادي، القاموس المحيط ٢٠٨/٢.

(٣) السير والمغازي ص ١٠١.

(٤) انظر جواد علي، المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٣٦٦/٦.

(٥) استنتج جواد علي أن كلمة الحمس نعت أو اسم من أسماء الآلهة عند الجاهليين! ولكن من غير
استناد إلى دليل أو برهان واضح، المفضل ٣٧٠/٦.

(٦) ألف أبو عبيدة معمر بن المثنى كتاباً عن الحمس اسمه (كتاب الحمس من قريش، ولم أر أحداً أشار
إلى هذا الكتاب، مما يرجح أنه مفقود أو ما زال في عالم المخطوطات انظر ابن النديم، الفهرست
ص ٨٠).

الأحمسية)، فلم نجد عند مؤرخينا المتقدمين رأياً قاطعاً في هذا الصدد؛ فابن إسحاق وهو من أوائل الإخباريين الذين تحدثوا عنهم (ت ١٥١هـ) لم يستطع أن يعطينا رأياً حاسماً إذ قال: «وقد كانت قريش - لا أدري قبل الفيل أو بعده - ابتدعت رأي الحمس رأياً رأوه وأداروه»^(١)، لكنه مع ذلك يحدد لنا إطاراً زمنياً تحديداً نسبياً (قبل الفيل أم بعده) قد يقربنا من الوصول إلى الاجتهاد في تحديد ذلك الظهور. بل إن الرواية الأخرى عن ابن إسحاق رواية يونس بن بكير والتي نصها: «وكانت قريش - لا أدري قبل بناء الكعبة أو بعده - ابتدعت رأي الحمس رأياً رأوه وأداروه بينهم»^(٢) قد تقودنا خطوة أخرى إلى الأمام في تحديد الفترة الزمانية لظهور الآراء الأحمسية وترسخها في نفوس القوم بشكل واضح جلي .

فإذا ما أخذنا من الرواية الأولى الاحتمال الأخير (بعد الفيل)، ومن الرواية الثانية الاحتمال الأول (قبل بناء الكعبة) فإن الزمن يتقارب كثيراً لنصل إلى تحديد مقبول للحد الذي نحن بصدد التحدث فيه، ومعلوم أن عام الفيل هو العام الذي ولد فيه رسول الله ﷺ كما عند عامة أهل السير^(٣)، ولما بنت قريش الكعبة كان لرسول الله ﷺ من السنين خمس وثلاثون سنة^(٤) فيكون ترسيخ قريش لتلك الآراء والبدع بين هذين الحدثين في هذه السنوات . ويفهم

(١) سيرة ابن هشام ٢٥٦/١.

(٢) السير والمغازي لابن إسحاق ص ١٠١.

(٣) ابن إسحاق ص ٤٨، وابن هشام ٢١١/١، وابن سعد في الطبقات ١٠١/١، وابن خياط في تاريخه

٩٠٨/١ بل إن ابن خياط يؤكد ذلك بقوله: «والمجتمع عليه عام الفيل» .

(٤) ابن إسحاق ص ١٠٩، عبدالرزاق، المصنف ١٠٣/٥، ابن هشام ٢٤٩/١.

من بعض الروايات التاريخية أن ذلك كان إلى الحدث الأول أقرب أي بعد عام الفيل مباشرة، فقد روى الأزرقى عن ابن جريج قال : « لما أن أهلك الله تعالى من أهلك من أبرهة الحبشي صاحب الفيل وسلط عليه الطير الأبابيل عظمت جميع العرب قريشاً وأهل مكة، وقالوا: أهل الله، قاتل عنهم وكفاهم مؤنة -هكذا- عدوهم، فازدادوا في تعظيم الحرم والمشاعر الحرام والشهر الحرام ووقروها ورأوا أن دينهم خير الأديان وأحبها إلى الله تعالى...»^(١)، فاستغلت قريش هذا الشعور الذي حدث في نفوس العرب تجاههم فابتدأت تُتمِّيه وتؤكد في كل مناسبة بمالها من مآثر ؛ باتصال نسبهم إلى إبراهيم عليه السلام، وبسكناهم الحرم، وولاية البيت.. فابتدأوا يظهرن الآراء والبدع الأحمسية ويروجون لها^(٢). بل إن رواية ابن الأثير - وإن كان متأخراً نسبياً (ت ٦٣٠هـ) - تشير إلى ذلك بوضوح؛ حيث ذكر أن العرب عظمت قريشاً بعد الفيل، وقالوا هم أهل الله وقطنه يحامي عنهم، فاجتمعت قريش بعد هذا وتنادوا إلى ما تنادوا^(٣).

ونخلص من هذا وبعد غريلة ما تيسر من المصادر عن كلمة (الحمس) إلى الترجيح بأن بداية ظهور البدع والآراء الأحمسية المتشددة التي لم تكن موجودة

(١) أخبار مكة ١٧٦/١.

(٢) يرجع أحمد الشريف في كتابه (مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ) ظهور أمر الحمس بأنه كان قبل الفيل، بل يحدد أنه ربما كان في عهد قصي بن كلاب الذي أقر وظائف مكة، ولكن دون استناد على رواية أو دليل صحيح. ص ١٨٨-١٨٩. وعلى النقيض من هذا يرجع حسين مؤنس في كتابه (تاريخ قريش) بل يجزم بأن ذلك «لابد أن يكون قد تم بعد عبدالمطلب بدليل أن رسول الله ﷺ كان إذا حج في الجاهلية وقف بعرفة مع بقية الناس» ص ١٧٣. أقول إنه ليس في هذا الدليل الذي ذكره أي دليل على ما ذهب إليه ولم يبين وجه الدلالة منه.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢٦٦/١.

عند قريش من قبل ^(١) كان بعد عام الفيل وانكسار أبرهة، وعظم قريش في أعين العرب وارتفاع مكانتها الأدبية حيث ابتدأت تشرع لنفسها وللعرب الذين وافقوها على ما تريد من تشريعات جديدة صارت تتأصل وتترسخ مع مرور الأيام والسنين حتى ظهر الإسلام وانتشر ودخل الناس في دين الله أفواجا، فكان لها وقتئذ وقعها ومكانتها في نفوس أهل مكة خاصة وفي نفوس العرب عامة . أما البدايات الأولى لظهور كلمة (الحمس) والتي تعني أهل الحرم أو نزلاء الحرم وما لهذا الحرم من منزلة ومكانة في نفوس القوم فإن ذلك كان قبل الفيل بكثير، وإن لدينا من الروايات في مصادرنا التاريخية ما يؤيد هذا الاتجاه ؛ فتكاد معظم المصادر التي تناولت الحديث عن الحمس تُجمع على أن بني عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن من الحمس ^(٢)، لأن أمهم قرشية وهي (مجد بنت الأدرم تيم بن غالب بن فهر)، قال الأزرقى: كانت قريش إذا انكحوا عربياً امرأة منهم اشترطوا عليه أن كل من ولدت له فهو أحمسي على دينهم، وزوج الأدرم تيم بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابنته (مجداً) ربيعة بن عامر بن صعصعة على أن ولده منها أحمسي على سنة قريش، وفيها يقول لبيد بن ربيعة :

سقى قومي بني مجدٍ وأسقى نميراً والقبائل من هلال

ثم ذكر أن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان تزوج سلمى بنت ضبيعة بن علي بن يعصر بن سعد بن قيس بن عيلان فولدت له هوازن

(١) انظر ابن هشام، السيرة ١/٢٦٠.

(٢) انظر على سبيل المثال ابن إسحاق، السيرة والمغازي ص ١٠١، وابن حبيب، المنقح ص ١٢٨، وابن

منظور، لسان العرب ٧/٢٥٨.

فمرض مرضاً شديداً فنذرت سلمى لثن برأ لتُحَمَّسَنَّهُ، فلما برأ حمسته^(١).
وغير خافٍ أن هذه الأسماء التي وردت في الروايات السابقة كان ظهورها على مسرح الحياة قبل الفيل بأمَد.

ويستنتج من الروايتين معاً أنه كان لقريش منذ ذلك التاريخ دينٌ يختلف عن أديان العرب الآخرين في بعض وجوهه، وأنه يوجد اقتناع عند بعضهم بأن دين قريش خير من دينهم، كما يظهر في الرواية الأخيرة.

إن تحديد بداية (الحمس) بهذه الصورة المثبتة هنا وهي أن بداية إطلاق الوصف على قريش بما تحمله الكلمة من تمييزٍ في الدين عن الآخرين كان قبل عام الفيل بوقتٍ طويل، وأن ظهور البدع والآراء الأحمسية الجديدة كان بعد عام الفيل قد يكشف لنا سر التردد الذي أشار إليه ابن إسحاق حينما قال عن تلك البداية: «لا أدري قبل الفيل أم بعده»، وهو رأي وسط يجمع بين الآراء التي تقول بقدوم ذلك، والآراء التي تقول بتأخره، والله أعلم .

إن ما أحدثته قريش بعد الفيل في أمر الحمس من بدع وتشريعات أوجدتها معظمها أو جلّها مما له ارتباط وعلاقة بالحج ومناسكه، أظهرته عندما وجدت الوقت مناسباً والنفوس مهيأة لقبوله، فاستغلت الفرصة ؛ فقد جاءهم الشيطان قاستهواهم، وقال لهم: إنكم إن عظمتهم غير حرمكم استخف الناس بحرمكم^(٢)

(١) أخبار مكة ١ / ١٧٩ - ١٨٠، وانظر سير ابن إسحاق حيث ذكر أن رجلاً من بني ملكان بن كنانة - وهو من الحمس - لما سمع ببناء أبرهة لكعبته باليمن يضاهي بها البيت الحرام، خرج إليها فدخلها فخرى فيها، ص ٦٠-٦١. كما ورد في بعض الأخبار أن بعض بني غطفان لما اتخذوا لهم حرمًا مثل حرم مكة لا يقتل صيده ولا يعضد شجره ولا يهاج عائذه، أغار عليهم زهير بن جناب الكلبي - وكان من الحمس - فهدم البيت وأصاب حاجته فيهم، وزهير هذا كان من الجاهليين المعمرين الذين عاشوا قبل الفيل، انظر أبا الفرج الأصفهاني، الأغاني ١٨/٣٠ وما بعدها.

(٢) الواحدي، أسباب النزول ص ٥٨، وابن حجر ، فتح الباري ٣/٥١٦.

فقالوا: «نحن قطين الله^(١)، فلا نخرج من حرمة»، ثم تنادوا فيما بينهم، وقالوا في تسويغ ما بدأوا يقدمون عليه من تغيير وابتداع في أمر الدين: «نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم، وولادة البيت، وقُطَّان مكة وسكانها، فليس لأحد من العرب مثلُ حقنا، ولا مثلُ منزلتنا، ولا تعرف له العرب مثلَ ما تعرف لنا»، وهذه أيضاً أسباب ودوافع للتحمس، فكان القرار: «فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استخف العرب بحرمتكم، وقالوا: قد عظموا من الحل مثلَ ما عظموا من الحرم»، ثم استتبع ذلك اتخاذ أولى الخطوات العملية للمبادئ التي ابتدعوها «فتركوا الوقوف على عرفة، والإفاضة منها، وهم يعرفون ويُقرون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ﷺ، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها، وأن يفيضوا منها، إلا أنهم قالوا: نحن أهل الحرم فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرمة، ولا نعظم غيرها كما نعظمها، نحن الحمس^(٢)». كانت هذه الشبهة أول المداخل التي دخل عليها إبليس - لعنه الله - منها، إذ أنه لم يرض بما هم عليه من شرك وتعظيمٍ لغير الله سبحانه وتعالى يتمثل في تلك الأنصاب والأزلام والأصنام المنصوبة هنا أو هناك أو حول البيت الحرام فحسب، وإنما أراد أن يفسد ما هم عليه من تلك البقية الباقية من مآثر الحنيفية دين إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، فأوحى إليهم أن تعظيمهم لغير الحرم - وهم سكانه وأهله - يؤدي إلى انتقاص مكانتهم ومنزلتهم في نفوس العرب، ويؤدي إلى الاستخفاف بهم وبحرمهم فلا

(١) قطين الله : سكان حرمة ، المعجم الوسيط ٧٤٨/٢.

(٢) ابن هشام ، السيرة ٢٥٦/١ - ٢٥٧ ، وقارن بسير ابن إسحاق ص ١٠١ ، وابن حبيب، المنطق

ص ١٢٧ ، وانظر رؤوف شلبي، المجتمع العربي قبل الإسلام ص ٩٩.

يُعَظَّمُ ولا يُحَجُّ إليه. وإن مما ساعدهم أيضاً على إحداث ذلك التغيير ما تبوأوه من مكانة في نفوس غالبية العرب؛ إذ^(١) أنهم نظروا إليهم نظرة تعظيم واحترام لمكانتهم من البيت، ولأنهم سدنّته والقائمون بأمور الحاج أيام الحج، فأذعنوا لهم بذلك، وعرفوا لهم حقوقهم؛ لأنهم قُوَّام الدين الذي يدينون به وهم لهم تبع^(٢)، فاستغلوا هذه المكانة لتشريع ما أحدثوه، ووظفوها أيضاً في تحقيق مصالحهم التجارية التي كانوا من أجلها يجتازون بلادهم في رحلاتهم المنتظمة صيفاً وشتاءً ذهاباً وإياباً.

قبائل الحمس :

وقبل أن نشرع في الحديث عن البدع والآراء الأحمسية التي رَسَخَتْ مفاهيمها قريشُ في مجتمعها ولدى القبائل العربية الأخرى التي كانت ترتاد مكة للحج أو للعمرة، نقف لنرى من شارك قريشاً في مذاهبها تلك من العرب الآخرين ممن لا يشاركونها النسب القبلي، ممن كانوا يعرفون بالحمس .

فالحمس هم قريش^(٣)، ثم جعلوا لمن ولدوا من سائر العرب من ساكني الحل

(١) إذ هنا حرف تعليل على رأي بعض علماء النحو .

(٢) انظر سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ص٧٤.

(٣) يقصر الدكتور حسين مؤنس كلمة (الحمس) على جماعة مخصوصة من قريش وهم جماعة المعارضين الخارجين على بني عبدالمطلب وبني هاشم ومن كان معهم في حلف المطيبين والفضول، وهم الذين أحدثوا التغيير والبدع الأحمسية بعد عبدالمطلب، «وأن الرسول ﷺ وبعض قومه من بني هاشم وحلفائهم رفضوا الانسياق مع جبهة المبتدعين لهذه الأمور» (تاريخ قريش ص١٧٦-١٧٧). أقول: لو كان ما يقول الدكتور صحيحاً لرأينا رأياً آخر لهؤلاء الآخرين بين بني هاشم وحلفائهم إزاء تلك التغييرات التي تمس جوهر دينهم وحياتهم، فهل يعقل أن يحدث ذلك كله دون ظهور صوت مخالف أو منكر لأي من تلك التشريعات المبتدعة ثم إذا كانوا مخالفين في هذه الأمور للفئة المناوئة المبتدعة كيف وافقهم عليها؛ فصاروا يقفون معهم بمزدلفة دون عرفات، إذ لم يعرف شاذ عن ذلك الإجماع من لدن قريش سوى رسول الله ﷺ - كما سبق - وما روى الواقدي أن شيبه بن ربيعة كان يقف بعرفة (المغازي ١١٠٢/٣) ثم إن شيبه بن ربيعة يُصنف وفق تقسيم (مؤنس) قريش إلى معسكرين (ص ١٧٠) ضمن القسم الآخر المناوئ لبني هاشم. وقد جاء النص صريحاً على تسمية قريش =

والحرم مثل الذي لهم بولادتهم إياهم، يحل لهم ويحرم عليهم ما يحرم عليهم، فكانت كنانة وخزاعةً وبنو عامر بن صعصعة قد دخلوا معهم في ذلك كله إلا بكر بن عبد مناة^(١)، ومن بني عامر بن صعصعة - الذين ينتمون إلى قريش بأمرهم مجد بنت الأدرم تيم بن غالب بن فهر - كلابٌ وكعبٌ وعامر و كلبٌ بنو ربيعة بن عامر^(٢).

ويضيف ابن حبيب في قائمة الحمس أيضاً الحارث بن عبد مناة بن كنانة ومدلج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة، بنزولهم حول مكة، وعامر بن عبد مناة بن كنانة، ومالك وملكان ابنا كنانة، وكذا ثقيف وبربوع بن حنظلة، ومازن بن مالك بن عمر بن تميم، وأمهما جندلة بنت فهر بن مالك بن النضر، ويقال: إن بني عامر كلهم حمس لتحمس إخوانهم من بني ربيعة بن عامر، وعلاف وهو ربان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، وجناب بن هبل بن عبدالله بم كلب، وأمه آمنة بنت ربيعة بن عامر بن صعصعة، وأمها مجد بنت تيم الأدرم بن

== عامة دون استثناء بالحمس. روى البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى في صحيحيهما عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت عن قريش «وكانوا يسمون بالحمس»، صحيح البخاري (كتاب التفسير، باب ثم أفيضوا)، حديث رقم ٤٥٢٠، وصحيح مسلم (كتاب الحج، باب في الوقوف بعرفة) حديث رقم ١٣٢١٩.

(١) ابن إسحاق، السير والمغازي ص ١٠١، ١٠٢، وابن حبيب، المنق ص ١٢٧-١٢٨، والأزرقي، أخبار مكة ١/١٧٧.

(٢) ابن رشيقي، العمدة ٢/١٩٧، وابن حبيب، المحبر ص ١٧٨، وقد أورد ابن هشام فيما رواه في دخول بني عامر مع قريش قول عمرو بن معد يكرب:

أعباسُ لو كانت شياراً جيداً بتثليثٍ ما نصيتُ بعدي الأحامسا

قال : يعني بالأحماس بني عامر بن صعصعة ، السيرة النبوية ١/٢٧ - ٢٥٨ ، وانظر السهيلي، الروض الأنف ١/ ٢٣٠ - ٢٣١ .

غالب بن فهر^(١)، ويذكر أن قريشاً لم تكن تُزوج بناتها من أبناء أشراف القبائل العربية الأخرى حتى تشترط عليهم أن من تلد منهن يكون من أبناء الخمس، أما هم إذا تزوجوا من بنات القبائل الأخرى فلا يشترطون على أنفسهم أي شرط، وكان من هذه القبائل عامر بن صعصعة، وثقيف، وخزاعة، والحارث بن كعب، وكان هؤلاء موافقين لقريش في دينها وأمورها^(٢).

ومنهم خثعم^(٣)، وجديلة قيس وهم فهم وعدوان ابنا عمرو بن قيس عيلان^(٤) ويضيف الأزرقى الأوس والخزرج وجشم^(٥)، وأزد شنوءة، وجذم، وزبيد، وبنو ذكوان من بني سليم، وعمرو اللات، وغطفان، والغوث، وقضاعة^(٦).

هذا إجمال بالقبائل التي ذكر انتماؤها إلى الخمس، وعند النظر في الوشائج التي جمعت بين تلك القبائل وبين قريش نلاحظ أحد الأمور التالية :
إما أنهم كانوا ممن ولدوا^(٧)، أو دانوا بدينهم^(٨)، أو جاوروهم بالنزول

(١) ابن حبيب، المحبر ص ١٧٨ - ١٧٩.

(٢) الجاحظ، مختارات فصول الجاحظ، نقلاً عن جواد علي، المفصل ٦/٣٦٥، وانظر الأزرقى، أخبار مكة ١/١٧٩.

(٣) الواحدى، أسباب النزول ص ٥٣، وابن حبان، البحر المحيط ٢/٦٣.

(٤) ابن منظور، لسان العرب ٧/٣٥٨. والفيروزأبادي، القاموس المحيط ٢/٢٠٨.

(٥) أخبار مكة ١/١٧٩. وانظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٢/٣٤٥.

(٦) الأزرقى، أخبار مكة ١/١٧٩.

(٧) انظر صحيح البخاري (كتاب الحج، باب الوقوف بعرفة) رقم الحديث ١٦٦٥، وابن سعد الطبقات ١/٧٢، وابن حبيب، المنطق ص ١٢٧، قال ابن حجر : إن المراد بالقبائل المذكورة من كانت له من أمهاته قريشية، فتح الباري ٣/٥١٧.

(٨) انظر صحيح البخاري (كتاب التفسير، باب «ثم افيضوا» ..) حديث رقم ٤٥٢٠، وصحيح مسلم (كتاب الحج، باب في الوقوف بعرفة ..) حديث رقم ١٢١٩، وابن قتيبة، المعارف ص ٦١٦، والأزرقى، أخبار مكة ١/١٧٧، وابن رشيق، العمدة ٢/١٩٧.

معهم في مكة^(١)، أو حالقوهم^(٢). على أي حال فيبدو أن سرد أسماء هذه القبائل من قبل المؤرخين وإدخالهم في زمرة الحمس نوعاً من التعميم؛ إذ لم نلاحظ لأي منها مواقف مشهورة أو مذكورة إلى جانب الحمس في ما كانوا يعملونه من تلك الأعمال المبتدعة، بل على العكس من ذلك كانت أعمال بعض القبائل المسماة ضمن قبائل الحمس مخالفة تماماً لأعمالهم، كما سنرى إن شاء الله تعالى في سبب نزول قوله تعالى : ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾^(٣).

هذا ويلاحظ عند بعض المؤرخين أنهم قسموا العرب من حيث الدين إلى قسمين: حُمْسٌ وحِلَّةٌ^(٤)، وهذا التعميم لا يمكن التسليم به لجميع العرب - كما يقرر جواد علي-^(٥)، وبعضهم قسمهم من حيث أعمال الحج إلى ثلاث فئات "حمس، وحلة، وطُلس، ولكل من هؤلاء مذهبه وأعماله في الحج التي يخالف فيها أو يوافق الآخرين"^(٦).

البدع والآراء الأحمدية :

روى البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى في صحيحيهما عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «كانت قريش في الجاهلية ومن دان بدينها يقفون

(١) انظر ابن حبيب، المحبر ص ١٧٨، وابن منظور، لسان العرب ٢٥٨/٧، وقد ذكر أن خزاعة سميت بهذا

الإسم لأنهم كانوا من سكان الحرم فخرعوا عنه أي أخرجوا.

(٢) ابن سعد، الطبقات ٧٢/١، والأزرقي، أخبار مكة ١٧٥/١، والطبري عن قتادة، تفسير الطبري ١٧٠/٢.

(٣) البقرة، آية ١٨٩.

(٤) تاريخ اليعقوبي ٣٥٦/١-٣٥٧.

(٥) الفصل ٣٧٣/٦.

(٦) انظر ابن حبيب، المحبر ص ١٧٨-١٨١ فقد تحدث بالتفصيل عن نقاط التوافق والاختلاف بينهم،

والفاسي، شفاء الغرام ٤١/٢-٤٣.

بالمزدلفة عند المشعر الحرام، وكان سائر العرب يقفون بعرفات»^(١)، كما روي عن عروة بن الزبير أن الحمس يفيضون من جَمْعٍ، ويفيض جماعة الناس من عرفات^(٢)، ويظهر من هذين النصين أن الحمس تركوا الوقوف على عرفة، وتركوا الإفاضة منها، وورد أنهم كانوا يَعْرِفُونَ ويُقِرُّون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم الخليل عليه السلام، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها^(٣)، وذلك بسبب أنهم لم يريدوا أن يعظموا شيئاً من الحل خارجاً عن حدود الحرم فيؤدي ذلك إلى استخفاف سائر العرب من غير الحمس (الحلة) بالحرم وعدم هيئته. فلذلك جعلوا موقفهم في طرف الحرم على أنصابه من نمرة بمفضى المأزمين يقفون به عشية عرفة، ويظلون به طوال يوم عرفة في الأراك، فإذا دفع الناس من عرفة وأفاضوا أفاضت الحمس حتى يلتقوا جميعاً بمزدلفة، فيبيتون بها^(٤).

وهذه بدعة فاسدة ورأي خبيث أوحى به إليهم الشيطان ليفسد عليهم هذا النسك الصحيح الذي كان من مشاعر الحج بقايا دين إبراهيم الخليل عليه السلام، ليزيد في إضلالهم وهلاكهم، ومقتضى هذه البدعة والهدف منها أن الحمس أرادوا أن يتميزوا عن سواهم بميزة فريدة لا يشاركون فيها أحد إلا من كان مثلهم، حتى ولو كان ذلك مخالفاً لعقيدتهم التي ورثوها عن الآباء والأجداد، تلك العقيدة التي رأيناها كثيراً أشد ما يكونون حرصاً على التشبث بها والتشديد عليها

(١) صحيح البخاري (كتاب التفسير، باب «ثم أفيضوا...») حديث رقم ٤٥٢٠، وصحيح مسلم (كتاب الحج، باب حجة النبي...) حديث رقم ١٢١٨.

(٢) صحيح البخاري (كتاب الحج، باب الوقوف بعرفة) حديث رقم ١٦٦٥.

(٣) ابن إسحاق، السير ص ٩٧، وابن هشام، السيرة ٢٥٧/١.

(٤) الأزرق، أخبار مكة ١٨١، ١٨٩.

﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾^(١)، لكن يبدو أن التنازل أو التغيير ممكن إذا كان موافقاً للهوى وتحقيق الرغبات. ومن الآراء الجديدة والبدع التي ظهروا بها خاصين بها أنفسهم عندما يكونون محرمين الأمور الآتية :

- كانوا يَأْتَقِطُونَ الْأَقِطَ^(٢).
- ولا يَسْلَوُونَ السَّمْنَ، ولا يأكلونه، ولا يأكلون الزُّبْدَ^(٣).
- ولا يَمْخَضُونَ اللَّبْنَ^(٤)، أو يدخرونه^(٥).
- ولا يأكلون اللحم^(٦).
- ولا يأكلون شيئاً من نبات الحرم^(٧).
- ولا يمسون الدهن^(٨).
- ولا يحولون بين مُرْضِعَةٍ ورضاعها حتى يعافه^(٩).
- ولا يَلْتَقِطُونَ الْجِلَّةَ^(١٠).

(١) الزخرف ، آية ٢٢.

(٢) ابن هشام، السيرة ٢٦٠/١، وابن حبيب، المحبر ص ١٨٠، والأقط: شيء يصنع من اللبن ويجفف فيؤكل، ويقال إنما يصنع من اللبن الحامض خاصة. انظر الخشني، شرح السيرة النبوية ص ٦٧.

(٣) ابن هشام، السيرة ٢٦٠/٢، وابن سعد، الطبقات ٧٢/١، وسلو السمن أن يطبخ الزُّبْدُ حتى يذوب فيصير سمناً. الخشني، شرح السيرة ص ٦٧، وانظر السهيلي، الروض ٢٢٩/١.

(٤) الأزرقى، أخبار ١٨٠/١.

(٥) المصدر السابق..

(٦) ابن حبيب، المحبر ص ١٨٠.

(٧) المصدر السابق. (٥٧) الأزرقى، الأخبار ١٨٠/١.

(٨) ابن حبيب ، المحبر ، ص ١٨٠ ، وتاريخ يعقوبي ٢٥٦/١.

(٩) المصدران السابقان.

(١٠) ابن قتيبة، المعارف ص ٦١٦، وابن منظور، لسان ٣٥٨/٧ والجلة: البعر، والتقاطه : جمعه ، لغرض

الإيقاد به . انظر لسان العرب ١٢٦/١٣ مادة (حلل) .

- ولا يَغْزِلُونِ الْوَبَرَ وَلَا الشَّعْرَ وَلَا الصَّوْفَ، وَلَا يَنْسُجُونَهُ، هُمْ وَلَا نِسَاؤُهُمْ، وَلَا يَلْبَسُونَهُ^(١).

- وَلَا يَبْتَنُونَ فِي حَجْهِمْ بَيْتاً مِنْ شَعْرٍ أَوْ وَبَرٍ أَوْ صَوْفٍ أَوْ قَطْنٍ وَلَا يَدْخُلُونَهُ^(٢)، وَإِنَّمَا كَانُوا يَسْتَظِلُّونَ وَيَسْكُنُونَ أَثْنَاءَ نَسْكِهِمْ بَيْوتِ الْأَدَمِ^(٣)، وَهِيَ الْقُبَابُ الْحُمْرُ الَّتِي يُعْرِفُونَ بِهَا^(٤). وَيَبْدُو أَنَّهُمْ حِينَ اقْتَصَرُوا عَلَى هَذَا النُّوعِ مِنَ الْمَسْكَنِ فِي حَجْهِمْ أَرَادُوا أَنْ يَظْهَرُوا أَيْضاً بِمَظْهَرٍ مُمَيِّزٍ يُمَيِّزُهُمْ عَنِ سَائِرِ النَّاسِ يَفَاخِرُونَ بِهِ غَيْرُهُمْ، حَيْثُ يَذْكُرُ أَنَّ الْقُبَابَ الْحُمْرَ كَانَتْ مِنْ مَظَاهِرِ السِّيَادَةِ وَالْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ فِي نَظَرِ الْجَاهِلِيِّينَ^(٥).

- وَكَانُوا إِذَا قَدَمُوا مَكَّةَ وَضَعُوا ثِيَابَهُمُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ^(٦)، فَيَلْبَسُونَ جَدِيداً^(٧).

- وَكَانُوا لَا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ إِلَّا وَعَلَيْهِمْ ثِيَابُهُمْ^(٨).

- وَلَا يَطُوفُونَ فِي حَذَائِهِمْ، وَلَا يَمْسُونَ الْمَسْجِدَ بِأَقْدَامِهِمْ تَعْظِيماً لِبَقْعَتِهِ^(٩).

- وَقَدْ امْتَاذُوا مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْعَرَبِ بِدُخُولِ الْبَيْوتِ مِنْ أَبْوَابِهَا وَهُمْ مُحَرَّمُونَ، أَمَّا غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُمْ لَا يَدْخُلُونَ الْبَيْوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا

(١) تاريخ اليعقوبي ٢٥٦/١، والأزرق، أخبار ١٨٠/١.

(٢) ابن هشام، السيرة ٢٦٠/١، وابن حبيب، المحبر، ص ١٨٠.

(٣) بيوت الأدم : الأخبية التي تصنع من الجلد. الخشني، شرح السيرة ص ٦٧.

(٤) ابن هشام، السيرة ٢٦٠/١، وانظر ابن سعد، الطبقات ٧٢/١.

(٥) انظر جواد علي، المفصل ٣٧٠/٦.

(٦) ابن حجر، فتح الباري ٥١٦/٣.

(٧) تاريخ اليعقوبي، ٢٥٦/١.

(٨) الأزرق، أخبار ١٨٠/١.

(٩) ابن حبيب، المحبر ص ١٨٠.

ولكن من ظهورها^(١)، فإذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية وأول الإسلام إن كان من أهل المَدَر (يعني أهل البيوت والقرى) نقب نقباً في ظهر بيته، فمنه يدخل ومنه يخرج، ولا يدخل من بابه^(٢)، وإن كان من أهل الوَبَر (البادية) خرج من خلف الخيمة والفسطاط، لا يدخل ولا يخرج من الباب حتى يحل إحرامه^(٣)، وكان يُستنكر من غير الحمس أن يدخل أحد بيته محرماً من بابه، كما سنرى إن شاء الله تعالى^(٤).

- وكانوا إذا زوجوا مامراً منهم لرجل من العرب ليس منهم يشترطون عليه أن ولده منها أحمسي على دينهم^(٥).

- ويرجح (دروزه) أن الأحماس هم الذين فرضوا الأشهر الحرم^(٦)، وتابعه (الشريف)^(٧)، ولكن ذلك لا يبدو صحيحاً لمن تأمل قوله تعالى: ﴿إِنْ عَدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

(١) صحيح البخاري، (كتاب التفسير، باب «وليس البر...») حديث رقم ٤٥١٢.

(٢) الأزرقى، أخبار ١/١٨٠، ١٨١.

(٣) أبو حيان، البحر المحيط ٦٢/٢.

(٤) ومع أن الروايات جاءت متناقضة في هذا الصدد، في الذي يُحرم الدخول من الأبواب هل هم الحمس؟ كما عند ابن حبيب، (المحبر ص ١٨٠)، والسهيلي، (الروض الأنف ١/٢٣٤)، وابن منظور، (لسان ٣٥٨/٧). أم غير الحمس، كما عند الواحدي، (أسباب النزول ص ٥٢-٥٣)، ومعظم المفسرين؛ انظر على سبيل المثال (تفسير القرطبي ٢/٢٤٥) وأبنا حيان (البحر المحيط ٦٣/٢)، إلا أنني أرى أن روايات المفسرين في ترجيح أن غير الحمس هم الذين يحرمون الدخول مع الأبواب في الإحرام أقوى لأنها مدعومة بأدلة وشواهد، ولا سيما رواية البراء المذكورة في الصحيح.

(٥) الأزرقى، أخبار ١/١٧٩.

(٦) عصر النبي ﷺ ص ٣٤٧.

(٧) مكة والمدينة ص ١٩٥.

منها أربعة حرم ذلك الدين القيم^(١)، حيث تُقرر الآية عدة الشهور وحرمتها منذ الأزل^(٢)، أما تعظيمهم للأشهر الحرم، وعدم الظلم فيها، وعدم إخفار الذمم فأمر معروف^(٣)، لكن ذلك ليس خاصاً بهم، ويضيف الفاسي أنهم كانوا إلى جانب تعظيم الأشهر الحرم يتعاطون الحقوق ويرعون عن المظالم وينصفون المظلوم^(٤).

تلك أهم الآراء والبدع التي ابتدعوها لأنفسهم مما أرادوا به التمييز عن غيرهم، لكن الغريب أن الحمس لم يقتصروا على ما سبق بيانه من هذه الأمور التي ألزموا بها أنفسهم، واعتبروا جزءاً من دينهم وقت نسكهم، حيث لم يتجرأوا على خرقها إلا النادر منهم، وإنما امتد أثرهم ليقرروا على أهل الحل (الحلة) وهم مَنْ سواهم أموراً ألزموهم بها، ولم يسيغوا لأحدٍ أن يشذ عنها.

ومن أبرز هذه الأمور:

- ما شرعوا لهم من مسألة الطواف حيث قالوا لا ينبغي لأهل الحل أن يطوفوا بالبیت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس^(٥)، بل ورد في بعض الروايات أن من طاف وعليه ثيابه من غير الحمس ضرب وانتزعت

(١) التوبة، آية ٣٦.

(٢) قال ابن كثير رحمه الله في تفسيرها: {ذلك الدين القيم} أي هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم والحذو بها على ما سبق في كتاب الله الأول. تفسير ابن كثير ٣٥٦/٢.

(٣) الأزرقي، أخبار ١٨٠/١، وانظر المقدسي حيث يقول: تعظيم الأشهر الحرم عند مشركي العرب بقية من دين إسماعيل عليه السلام، البدء والتاريخ ٣٢/٤.

(٤) شفاء الغرام ٤١/٢.

(٥) ابن هشام، السيرة ١ / ٢٦٠، وانظر صحيح البخاري (كتاب الحج، باب الوقوف بعرفة) حديث رقم ١٦٦٥.

منه^(١).. ويفهم من هذه الرواية أن الحمس يُعاقبون مَنْ يخرقُ قاعدة الالتزام بالطواف في الثياب الأحمسية عندما يتجرأ فيطوف في ثيابه بضربه وانتزاعها منه^(٢).
لكن كيف يتمكن غير الحمس من الحصول على الثياب أو المآزر الأحمسية للطواف بها؟

ذكر ابن إسحاق أن أهل الحل عندما يأتون حجاجاً أو عماراً إذا دخلوا الحرم التمسوا من ثياب الحمس إما عارية وإما بإجارة فطافوا فيها^(٣)، أما الشراء فلا يستطيعونه، لأنهم في حجههم (يوم عرفة وأيام منى) لا يستحلون أن يشتروا شيئاً أو يبيعون حتى يأتوا منازلهم، إلا اللحم^(٤)، وقد كان لبعض الحلة أصدقاء ومعارف من الحمس يعيرونهم ثيابهم للطواف بها، وتذكر بعض الروايات أنه كان لرسول الله ﷺ صديق من الحلة يعطيه الرسول ثيابه ليطوف بها إذا قدم مكة، وهو عياض بن حمار المجاشعي^(٥). وأشارت رواية لدى البخاري رحمه الله تعالى عن عروة بن الزبير إلى أن الحمس كانوا «يحتسبون على الناس، يعطي الرجل الرجل الثياب يطوف فيها، وتعطي المرأة المرأة الثياب تطوف فيها»^(٦)، لكن من لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثوباً،

(١) الأزرقى، أخبار ١٧٦/١، وابن حيان، البحر المحيط ٢٨٩/٤.

(٢) غير أن المصادر لم تبين لنا من كان قائماً على عقائد الحمس ومن هو المشرف على تنفيذها، ومن الذي يتولى مراقبة المخالفين ومعاقبتهم، لكن لما كانت مكة يؤمئذ ليس لها حكومة مركزية أو فردية، وإنما كانت محكومة برجال الملأ الذين يرعون سير الحياة فيها وفق الأعراف والتقاليد السائدة والموروثة أو المقررة، فهم أهل السيادة والسطوة فيها، كما هو واضح للمتعمق في تاريخ تلك الفترة.

(٣) السير ص ١٠٢.

(٤) ابن حبيب، المحبر ص ١٨١، والأزرقى، أخبار ١٨٨/١، وتاريخ اليعقوبي ٢٥٧/١.

(٥) ابن حبيب، المحبر ص ١٨١.

(٦) صحيح البخاري (كتاب الحج، باب الوقوف بعرفة) حديث رقم ١٦٦٥.

ولا يسار يستأجر به كان بين أحد خيارين أمرين : إما إن يخلع ثيابه فيطوف بالبيت عرياناً وإما أن يطوف في ثيابه التي جاء بها من الحل، فإذا فرغ من طوافه ألقاها فلم ينتفع بها هو ولا غيره^(١)، ولا يمسه أحدٌ من خلق الله تعالى حتى تبلى من الشمس والرياح والأمطار ووطء الأقدام^(٢)، وتسمي العرب هذه الثياب (اللّقى)^(٣)، قال ورقة بن نوفل يذكر شيئاً تركه وهو يحبه فلا يقربه^(٤):

كفى حزناً كَرِّي عليه كأنه لَقَى بين أيدي الطائفين حريم^(٥)

وبصوّر الأزرقى حال من يأتي من غير الخمس يريد الطواف تصويراً دقيقاً، حيث يقول: « يقف أحدهم بباب المسجد فيقول: من يعير مصوناً؟ من يعير ثوباً؟ فإن أعاره أحمسي ثوباً أو أكراه طاف به، وإن لم يعره ألقى ثيابه بباب المسجد من خارج ثم دخل الطواف وهو عريان، يبدأ بأساف^(٦) فيستلمه، ثم يستلم الركن الأسود، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه، فإذا ختم طوافه سبعاً استلم الركن، ثم استلم نائلة، فيختم بها طوافه، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس، فيأخذها فيلبسها، ولا يعود إلى الطواف بعد ذلك عرياناً^(٧).

(١) ابن هشام، السيرة ١٦٠/١، وابن سعد، الطبقات ٧٢/١، والقرطبي، الجامع ١٨٩/٧.

(٢) الأزرقى، أخبار ١٨٢/١.

(٣) ابن هشام، السيرة ١٦٠/١، واللقى : هو الثوب الذي يُطرح بعد الطواف فلا يأخذه أحد، انظر السهيلي، الروض ٢٣١/١.

(٤) ابن حبيب، المنقح ص ١٢٩.

(٥) حريم: أي محرم لا يؤخذ ولا ينتفع به، السهيلي، الروض ٢٣١/١.

(٦) أساف ونائلة: يقال إنهما رجلٌ وامرأةٌ من جرهم فسقا عند الكعبة فمسخهما الله تعالى حجّرين، صُيِّرا بعد ذلك وثنين وعُبدَا وتُقَرَّبَ بهما إلى الله تعالى، وقيل بل هما حجران نحتا ومثلاً. انظر المسعودي، مروج الذهب ١٦٦/٢.

(٧) أخبار مكة، ١٧٧-١٧٨.

فالثياب التي تسمى اللقى هي التي يلبسها صاحبها وقت الطواف فإذا فرغ منه ألقاها بين أساف ونائلة^(١)، وتركت حتى تتمزق وتبلى، وعادة ما يمارس الطواف بمثل تلك الثياب من يكون ذا يسار ولديه ثيابٌ أخرى يلبسها بعد فراغه من الطواف، وهو يأنف من الطواف في حالة العري، وليس له من يعيره أو يكرهه من أهل مكة من ثياب الحمس فيطوف في ثيابه، ومن ثم يلقبها، لكن من ليس له يسار، ولا يجد من يعيره من الحمس، ويضنُّ بثيابه أن يلقبها فهذا هو الذي يخلعها قبل الطواف ويطوف عرباناً، ثم يعود إليها ويلبسها مرةً أخرى .

ومن خلال استقراء ما دونه المؤرخون عن الطواف في حالة العري يبرز تساؤل وهو: هل الطواف في مثل هذه الحالة واجب على كل من قدم مكة حاجاً أو معتمراً من غير الحمس يريد الطواف بالبيت في كل زمن؟ أم أنه لا يفعل ذلك إلا في حالات مخصوصة ؟

وللإجابة على هذا التساؤل نعرض شيئاً مما أورده بعضهم؛ فابن إسحاق قال : «ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس»^(٢)، وابن سعد قال : «وشرعوا لمن قدم من الحاج أن يطوف بالبيت وعليه ثيابه ما لم يذهبوا إلى عرفة، فإذا رجعوا من عرفة لم يطوفوا طواف الإفاضة بالبيت إلا عراة أو في ثوبي أحمسي»^(٣)، أما الأزرقى فقد تعرض لذلك في أكثر من موضع، ففي النص الذي أورده قبل قليل أشار إلى أن الحاج من غير الحمس

(١) الأزرقى، أخبار ١/١٧٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ١/٢٦٠ .

(٣) الطبقات ١/٧٢ .

إذا قدم مكة طلب ثياب الحمس ليطوف بها، فإن أعطي وإلا طاف بالبيت عرياناً بعد خلع ملابسه خارج المسجد فإذا انتهى من الطواف عاد إليها فلبسها، ثم «لا يعود إلى الطواف بعد ذلك عرياناً»، ثم نص على أنه «لم يكن يطوف بالبيت عرياناً إلا الصَّوْرَةُ من غير الحمس»^(١)، والصَّوْرَةُ هو الذي لم يحج قط^(٢)، أي بمعنى الذي يقدم للحج أول مرة، ثم أكد ذلك عندما قال: «وكانت الحلة تطوف بالبيت أول ما يطوف الرجل والمرأة في أول حجة يحجها عراً»^(٣).

فيفهم من هذه النصوص أن طواف الحجاج من غير الحمس عراً لا يُلزم به إلا من قدم حاجاً أول مرة وفي طواف الإفاضة نفسه إذا لم يجد ثياب الحمس، أما من كان يتكرر منه الحج أو الطواف لغير الإفاضة فهو غير ملزم به، وإذا كان الأمر محصوراً بهذه الفئة فيمكن أن يكون مقبولاً؛ لأنه لا يمكن تصور أن تفي مآزر الحمس المعدة للإعارة أو للإكراء لجميع فئات الحجاج القادمين للبيت الذين يتكرر حجهم أعواماً أو الذين يطوفون تطوعاً. ولهذا فيحتمل أن تكون نسبة الطائفتين بالبيت عراً ليست عالية مقارنة بالذين يطوفون بالثياب والمآزر الأحمسية أو الذين يطوفون بثيابهم ثم يطرحونها فبخاصة إذا تصورنا أن التعري كان في نظر العرب من المعاييب التي لا يمكن أن يقدم عليها إلا من اضطر إليها اضطراراً.

وقد يفهم مما تحدث به المؤرخون عن الطواف في الثياب الأحمسية أو عراً

(١) أخبار مكة ١/١٧٨.

(٢) ابن منظور، لسان العرب ٦/١٢٣ مادة (صَرَّرَ).

(٣) أخبار مكة ١/١٨٢.

أنهم إنما كانوا يفعلون ذلك إما تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد^(١)، أو عدم رغبتهم الطواف في ثياب قارفوا فيها الذنوب^(٢)، أو تفاؤلاً ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب^(٣)، وقد تكون هذه المعاني قد استقرت في أذهانهم فيما بعد، لكن يظهر - والله أعلم - أن بداية الطواف عراً كان من فرض الأحماس على الحجاج حتى يظهروا فضلهم وتكرمهم على الناس بما يعيرون ويقدمون من الثياب للطائفين، وحتى يبين شرفهم وسؤددهم وتمايزهم، بدليل تلك العبارة القوية الدلالة الواضحة المعنى لدى ابن إسحاق «فحملوا على ذلك العرب فدانت به؛ ووقفوا على عرفات وأفاضوا منها وطافوا بالبيت عراً»^(٤).

وماذا عن طواف النساء غير الأحمسيات؟

ثبتت النصوص الصحيحة التي بين أيدينا من غير شك أنه كان يجري عليهن ما يجري على الرجال؛ فإن تلك التي لا تَحْتَسِبُ عليها امرأة من الحمس ثياباً تطوف فيها^(٥)، أو تلك التي لا تستطيع استئجار الثياب، كانت تضطر إلى الطواف عارية، روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة، فتقول: من يعيرني تطوفاً؟^(٦) تجعله على فرجها وهي تقول :

(١) ابن حبيب، المحبر ص ١٨١.

(٢) الأزرقى، أخبار ١/١٨٢، والسهيلي، الروض ١/٢٣١.

(٣) أبو حيان، البحر المحيط ٤/٢٨٩.

(٤) ابن هشام، السيرة ١/٢٦٠.

(٥) صحيح البخاري (كتاب الحج، باب الوقوف بعرفة) حديث رقم ١٦٦٥.

(٦) التطواف هو الثوب الذي يطاف به.

اليومَ يبدوا بعضُهُ أو كُلُّهُ وما بدا منه فلا أحلُّهُ^(١)
وقائلة هذا البيت - على الأرجح - هي ضباعة بنت عامر بن قُرت، قاله
القاضي عياض^(٢).

وذكر ابن إسحاق أن الرجال يطوفون عراة، أما النساء «فتضع إحداهن
ثيابها كلها إلا درعاً مُفَرَّجاً^(٣) عليها ثم تطوف فيه»^(٤).

وجاء في بعض الروايات أن بعض النساء كانت تتخذ سيوراً فتعلقها في
حقوتها وتستتر بها^(٥)، كما ورد في روايات أخرى أن بعض القبائل كان رجالها
يطوفون في النهار والنساء يطفن ليلاً^(٦)، استتاراً عن أعين الرجال، لكن ذلك
لم يكن شأن وديدن النساء كلهن، ولذلك فقد وقع لبعضهن حرج كبير، وحدثت
مفاسد وفتن عند طواف النساء عاريات؛ من ذلك أنه جاءت امرأة يوماً من
الأيام - وكانت ذات جمال وهيئة - فطلبت ثياباً عاريةً لتطوف بها، فلم يتقدم
أحد لإعارتها، فلم تجد بداً من أن تطوف عريانة، فخرجت ثم نزعَت ثيابها عند
باب المسجد، ثم دخلت المسجد عريانة وقد وضعت إحدى يديها على قبلها
والأخرى على دبرها، وبدأت تطوف وهي تنشد البيت المشهور الذي مرَّ قبل
قليل في حديث ابن عباس والذي يظهر أنه كان معروفاً لدى كثيرات منهن
يُظهرن به مدى نفورهن من تلك الحال السيئة التي ألجئن إليها، قال فجعل

(١) صحيح مسلم (كتاب التفسير، باب قوله تعالى: «خذوا زينتكم...») حديث رقم ٢٨٠٢٨.

(٢) تفسير القرطبي ١٨٩/٧.

(٣) الدرع المفرج هو المشقوق من قدام أو من خلف، الخشني، شرح السيرة ص ٦٧.

(٤) ابن هشام، السيرة ٢٦٠/١.

(٥) الأزرقي أخبار ١٨٢/١.

(٦) المصدر السابق.

فتيانَ مكة ينظرون إليها، وكان لها حديث طويل، وقد تزوجت في قريش^(١). ومن نتائج التعري في طواف النساء ما روي أيضاً من أن امرأة جميلة جاءت تطوف عريانة، فرآها رجل فأعجبته، فدخل الطواف وصار يطوف إلى جنبها، ويدني عضده من عضدها وينضمُّ إليها تلذذاً واستمتاعاً، فالتزقت عضده بعضدها، ففزعاً لما أصابهما من العقوبة وخرجا من المسجد هارين وهما ملتصقان، ولم يقدر أن يفتكاً حتى قال لهما قائل: توبا إلى الله وأخلصا أن لا تعودا، ففعلا، فانحل أحدهما عن الآخر، فذهب كل منهما في ناحية^(٢).

وإذا كانت هذه القصة صحيحة - وليس بعزيز على الله سبحانه وتعالى أن يعاجل بالعقوبة في الدنيا من يتجرأ على محارمه في حرمه - فإنها تعطي انطباعاً عن ما يمكن أن يحدثه طواف النساء عاريات لدى شباب قريش وفي المجتمع القرشي من آثار سلبية.

- ومما شرع الحُمْس للحلة أنهم إذا جاؤوا حجاجاً أو عماراً فلا ينبغي لهم أن يأكلوا من طعام جاؤوا به معهم من الحل إلى الحرم^(٣)، وقد أطاعوهم في ذلك ووافقوهم على ما شرعوا فكانوا إذا دخلوا الحرم وضعوا أزوادهم التي جاؤوا بها، وابتاعوا من طعام الحرم^(٤)، فلا يكون طعامهم في الحرم إلا من طعام أهل الحرم إما قراء وإما شراء^(٥)، ولكنهم لا ينالون من الطعام إلا قوتاً،

(١) الأزرقي، أخبار ١/١٧٨.

(٢) السهيلي، الروض ١/٢٣٢.

(٣) ابن حبيب، المنق ١٢٨ ص.

(٤) ابن إسحاق، السير ١٠٢ ص.

(٥) الأزرقي، أخبار، ١/١٧٦.

تعظيماً لحجهم^(١). وكان لدى قريش وظيفة (الرفادة) وهي خَرْجُ تخرجه قريش في كل موسم من أموالهم تعطيه من يقوم على هذه الوظيفة، فيصنع به طعاماً للحجاج، فيأكلون منه، فبخاصة من لم يكن له سعة في المال يستطيع به الشراء، وكان قد فرضها عليهم قصي بن كلاب، فاستمرت قريش عليها وظلت موجودة حتى بعد ظهور الإسلام^(٢)، وبعد عبد مناف بن قصي تولى وظيفة الرفادة ابنه هاشم، فإذا حضر موسم الحج حثَّ قريشاً على البذل والإنفاق لإطعام الحجاج حتى يصدروا، وكان هو نفسه موسراً كريماً باذلاً، قال فيه الشاعر^(٣) :

عمرو الذي هشم الشريد لقومه قوم بمكة مستنين عجاف

فكان الحجاج يأكلون من موائد قريش التي تنصبها لهم أيام عرفات ومنى في موسم الحج.

واستفادت قريش من هذه المؤكلة في أنها أصبحت بمثابة عقد جوار وظَّفَتُهُ في خدمة مصالحها التجارية ورحلاتها المنتظمة صيفاً وشتاءً في مناطق نفوذ القبائل المختلفة التي تأتي للحج، فتوفر الحماية لقوافلها التجارية التي تمر عبر أراضيها فلا يتعرض لها أحد بسوء.

وبعد هذا العرض السريع للآراء والبدع التي ابتدعها الحمس لهم أو لغيرهم نقف لتأمل إن كان ثمة أهداف كانوا يرمون إلى تحقيقها من خلال ذلك، ولا يعقل أن يكون عملهم ذلك عبثاً؛ فمما لا شك فيه أن منزلة قريش في نظر غالبية العرب كانت سامية بسبب سكناهم مكة ومجاورتهم للبيت

(١) أبو حيان، البحر المحيط ٢٨٩/٤.

(٢) ابن هشام، السيرة ١٧٨/١.

(٣) ابن هشام، السيرة ١٨٥/١.

الحرام وقيامهم على شؤونه وسدائنه وخدمة الحجاج في أيام الحج، فأرادت قريش أن تستغل هذه المكانة في تمكين هيبتهم في نفوس العرب وأن يصبغوا أنفسهم بصبغة يمتازون بها في الدين عمن سواهم، فكأنهم طبقة خاصة أو جنس فضله الله تعالى على بقية أجناس العرب، لهم مناسكهم ولبقية العرب مناسكهم، ولهم قبابهم الخاصة من الأدم التي يضربونها في موسم الحج والتي تميزهم عن غيرهم بمجرد رؤيتها.

إن تلكم المكانة الدينية الأحمدية التي تبوأتها قريش جعلتها تنفر من الغزو والغارات التي تدر الأسلاب والغنائم وتلتفت إلى تنظيم تجارتها الإقليمية والداخلية؛ فضربوا أنحاء الأرض بقوافلهم التجارية المحملة بصنوف البضائع آمين على الرغم من كثرة قطاع الطرق والصعاليك. وازدهرت التجارة في الأسواق الداخلية التي تقام داخل مكة قبيل موسم الحج وأثناءه، ليتمكن الحجاج من استيفاء حوائجهم ومتطلباتهم قبل الدخول في نسكهم، وبالجملية فقد أفادت قريش من هذه التشريعات فوائد كبيرة في بناء مصالحها التجارية.

وقد ورد في بعض المصادر أنهم فرضوا ضريبة على بعض من ينزلون بهم يسمونها (الحريم) بعض ثيابهم أو بعض بدناتهم التي ينحرونها، وذكروا في ذلك قصةً لرجلٍ من غطفان اسمه ظويلم من بني لأي بن شمع الذبياني، وهو أنه نزل في الجاهلية على المغيرة بن عبدالله المخزومي فأراد المغيرة أن يأخذ منه ما كانت تأخذ قريش ممن نزل عليها، فامتنع عليه ظويلم الذي لقب بسبب ذلك بمانع الحريم^(١)، ثم قال :

(١) ابن دريد، الاشتقاق ص ٢٨٢.

يا ربَّ هل عندك من غَفِيرِهِ إن مِنِّي مانِعُهُ المَغِيرَهُ
وما نَعُ بعد مِنِّي ثَبِيرَهُ وما نَعِي رَبِّي أن أزوره
كما أنهم استفادوا أيضاً من اشتراطهم على من تزوج منهم أن ولده من نسائهم يكون أحمسياً على نهجهم وديانتهم، فإنه إن لم يكن متحالفاً معهم فهو على الأغلب ميالاً إليهم^(١).

ولهذا فقد كانت الحمس يفتخرون بهذا اللقب، فكانت المرأة تُزَقَّن^(٢) الواحدة منهم ابنها رافعة رأسها بكونه من هذه الفئة المميزة، هذه هند بنت عتبة تُزَقَّن ابنها عتبة قائلة^(٣):

إن بُنِيَ من رجال الحمس كريم أصل وكريم النفس
ليس بوجَّاب الفؤاد نكس عتبه بدر وأبوه شمس
كما أن الانتماء إلى الحمس يعد من المفاخر الكبيرة التي يتفاخر بها من ينتمي إليهم، قال لقيط بن زراراة الدارمي في يوم جبلة :
أجْذِمُ إليك إنها بنو عبس المعشرُ الجِلَّةُ في القومِ الحُمُسُ^(٤)
وذلك لأن بني عبس كانوا في يوم جبلة حلفاء في بني عامر بن صعصعة وهم من الحمس^(٥).

موقف الإسلام من البدع الأحمسية :

جاءت الروايات الصحيحة مثبتة أن رسول الله ﷺ كان مخالفاً للحمس

(١) انظر زيتوني، (الحمس وأحوالهم قبيل الإسلام) مجلة العرب سنة ١٤١١هـ، ج ٣، ص ١٦٢.

(٢) تُزَقَّنُ: بمعنى تُرَقَّص.

(٣) ابن حبيب، المنطق ص ٣٤٨.

(٤) أجْذِمُ إليك: هي كلمة تزجر بها الخيل. والمعشر الجلة: أي العظماء.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية ٢٥٨/١.

في ما ابتدعوه من آراء في الحج خالفوا بها الهدي الصحيح الذي كان معروفاً منذ زمن إبراهيم الخليل عليه السلام، فبخاصة الوقوف بعرفة^(١)؛ فقد روى الإمام أحمد وصاحبها الصحيحين - رحمهم الله تعالى - عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه، قال: أضللت بغيراً لي فذهبت أطلبه يوم عرفة، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم واقفاً مع الناس بعرفة، فقلت: والله إن هذا لمن الحمس، فما شأنه هاهنا؟ وكانت قريش تعد من الحمس^(٢).

ووقوف النبي صلى الله عليه وسلم هذا وردت روايات تفيد أنه كان «قبل أن ينزل عليه الوحي»، أي «قبل النبوة»^(٣)، وأخرى أفادت أن ذلك كان «في سنته التي دعا فيها بمكة قبل الهجرة»^(٤)، وثالثة نصت على أن وقوفه بعرفة على بغير له كان «بعدما أنزل عليه»^(٥).

والجمع بين هذه الروايات يسيرٌ إذا ما أخذنا في الاعتبار تعدد قيامه بالحج مرات صلى الله عليه وسلم منذ بلوغه إلى ما قبل هجرته، وهو في كل ذلك كان يخالف الحمس في بدعهم تلك، حيث كان يقف مع جمهور الناس الذين يقفون بعرفة في يوم عرفة، ولا يقف مع قومه الذين لا يجاوزن الحل، ثم يدفع مع الناس من عرفة حتى أصبح مع قومه بالمزدلفة، فيقع معهم ثم يدفع إذا دفعوا^(٦)، وكل ذلك

(١) انظر تفسير الطبري ١٧٠/١.

(٢) مسند الإمام أحمد ٨٠/٤، وصحيح البخاري (كتاب الحج، باب الوقوف بعرفة) حديث رقم ١٦٦٤.

وصحيح مسلم (كتاب الحج، باب في الوقوف بعرفة..) حديث رقم ١٢٢٠.

(٣) ابن هشام، السيرة ٢٦٢/١، الواقدي، المغازي ١١٠٢/٣، السهيلي، الروض ٢٣٤/١.

(٤) الأزرقي، أخبار ١٨٨/١.

(٥) مسند الإمام أحمد ٨٤/٤، والطبراني، المعجم الكبير ١٤٢/٢ حديث رقم ١٥٩٨.

(٦) الطبراني، المعجم الكبير ١٣٦/١ حديث رقم ١٥٧٨.

توفيق من الله تعالى له حتى لا يفوته ثواب الحج وثواب الوقوف بعرفة^(١). وهكذا لما ظهر الإسلام وأمر رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أن يحج بالناس في السنة التاسعة للهجرة، أمره أن يخرج بالناس إلى عرفات فيقف بها فإذا غربت الشمس أفاض بهم حتى يأتي جمْعاً، فبييت بها؛ فتوجه أبو بكر إلى عرفات فمر بالحِمْص وهم وقوف بجمع فلما ذهب ليجاوزهم اعترضوه وقالوا: يا أبا بكر أين تجاوزنا إلى غيرنا؟ هذا موقف آبائك! فمضى أبو بكر كما أمره الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم حتى أتى عرفات، فوقف بها حتى غربت الشمس، ثم أفاض منها^(٢).

ثم لما كانت حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة، واستقطب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم الناس ليشهدوه في ذلك الموقف ليأخذوا عنه المناسك، "فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز رسول الله حتى أتى عرفة .." ^(٣).

قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى بعد أن عرض بدع الحِمْص وما كانوا عليه في الجاهلية منها: «فكانوا كذلك حتى بعث الله تعالى محمداً ﷺ فأنزل عليه حين أحكم له دينه وشرع له سنن حجه: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض

(١) انظر السهيلي، الروض ٢٣٤/١.

(٢) ابو حيان، البحر المحيط ١٠٠/٢، وانظر أيضاً تفسير (النهر الماد من البحر)، للمؤلف نفسه، مطبوع بحاشية البحر ١٠١/٢.

(٣) صحيح مسلم (كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما رقم الحديث ١٢١٨، وفي رواية للواقدي: أنه كان معه نوفل بن معاوية الديلي وكان يسير إلى جنبه، فقال: يا رسول الله ظن قومك أنك تقف بجمع، فقال رسول الله ﷺ: «لقد كنت أقف بعرفة قبل النبوة خلافاً لهم»، المغازي ١١٠/٣.

الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴿١﴾، يعني قريشاً والناس: العرب، فرفعهم في سنة الحج إلى عرفات، والوقوف عليها والإفاضة منها^(٢).

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كانت قريش ومن دان بدينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون الحمس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات، ثم يقف بها، ثم يفيض منها، فذلك قوله تعالى: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾^(٣).

وقد حكى ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى إجماع المفسرين على أن المقصود بهذه الآية قريشاً ومن كان متحمساً معها من سائر العرب^(٤).

فأبطل الله تعالى أمر الحمس فيما ابتدعوه من هذه البدعة الفاسدة حين ظهر الإسلام وأمرهم أن يقفوا مع الناس حيث يقفون بعرفة وينصرفون معهم حين ينصرفون منها، فالإسلام لا يعرف طبقة ولا يعرف نسباً، فالناس كلهم أمة واحدة سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، فأمرهم أن يدعوا عصبية الجاهلية، ويدخلوا في صبغة الإسلام^(٥).

ثم أنزل الله سبحانه وتعالى في شأن أولئك الذين كانوا يطوفون بالبيت عراً تقليداً لأبائهم الذين أطاعوا مَنْ أمرهم من الحمس بتلك البدعة الشنيعة ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنْ لِلَّهِ لَا

(١) سورة البقرة آية ١٩٩.

(٢) ابن هشام، السيرة ١/٢٦١.

(٣) صحيح البخاري (كتاب التفسير، باب ثم أفيضوا..) حديث رقم ٤٥٢٠، وصحيح مسلم (كتاب الحج،

باب في الوقوف بعرفة..) حديث رقم ١٢١٩.

(٤) تفسير الطبري ٢/١٧١، وانظر تفسير ابن كثير أيضاً ١/٢٤٣.

(٥) انظر سيد قطب، في ظلال القرآن ١/٢٨٨.

يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴿١﴾، الفاحشة هنا في قول أكثر المفسرين: طوافهم بالبيت عراة^(٢)، ونراهم في هذه الآية لم يكتفوا بذلك الاحتجاج الأول الساقط وهو تقليد الآباء، بل تعدّوه إلى الادعاء بأن ما هم عليه من هذه البدعة الفاسدة هو من أمر الله، أي «لو كره الله تعالى ما هم عليه لَنَقَلْنَا عنه»، كما قال الحسن^(٣).

ومما قال الطبري - رحمه الله تعالى - في تأويل هذه الآية : وإذا فعل الذين لا يؤمنون بالله الذين جعل الله الشياطين لهم أولياء قبيحاً من الفعل وهو الفاحشة، وذلك تعريضهم للطواف بالبيت وتجردهم له، فعذلوا على ذلك وعوتبوا، قالوا: وجدنا على مثل ما نفعل آباءنا فنحن نقتدي بهم، والله أمرنا فنحن نتبع أمره، قل لهم يا محمد إن الله لا يأمر بالفحشاء، أي لا يأمر خلقه بقبائح الأفعال ومساوئها، أتقولون أيها الناس على الله ما لا تعلمون أي أتروون على الله أنه أمركم بالتعري والتجرد من الثياب واللباس للطواف وأنتم تعلمون أنه أمركم بذلك^(٤).

ثم أمرهم الله سبحانه وتعالى بارتداء اللباس الساتر للعودة عند الطواف والصلاة، وأكل ما لم يحرمه عليهم من حلال رزقه، فأنزل في شأن ما كانوا حرموا على الناس من الطعام واللباس عند البيت حين طافوا عراة، وحرموا ما جاءوا به من الحل من الطعام^(٥): ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد

(١) الأعراف ، آية ٢٨.

(٢) تفسير الطبري ١١٤/٨، وتفسير القرطبي ١٨٧/٧، وتفسير ابن كثير ٢٠٩/٢.

(٣) تفسير القرطبي ١٨٧/٧.

(٤) تفسير الطبري ١١٤/٨.

(٥) ابن هشام، السيرة ٢٦١/١.

وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون^(١)، وحديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الذي سبق صريحٌ في سبب نزول هذه الآية ، قال : كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة، فتقول : من يعيرني تطوفاً؟ تجعله على فرجها وهي تقول :

اليوم يبدو بعضه أوكله وما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية : ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾^(٢).

وروى ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى عن ابن عباس أيضاً في سبب نزولها قال : كانوا يطوفون عراة الرجال بالنهار والنساء بالليل^(٣). وسرد ابن كثير رحمه الله تعالى أسماء عدد من أئمة التفسير قالوا في تفسيرها: إنها نزلت في طوائف المشركين بالبيت عراة^(٤).

وهكذا أبطل الله تعالى تلك الضلالة والبدعة والجهالة حين أنزل على نبيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هذه الآية، وأذن مؤذن رسول الله ﷺ ألا « لا يطوف بالبيت عريان »^(٥)، وكان ذلك في السنة التاسعة التي حج فيها أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه بالناس حين بعث مؤذنين يؤذنون الناس بذلك في منى يوم النحر.

(١) سورة الأعراف، آية ٣١، ٣٢.

(٢) صحيح مسلم (كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: « خذوا زينتكم عند كل مسجد ») حديث رقم ٣٠٢٨.

(٣) تفسير الطبري ١١٨/٨.

(٤) تفسير ابن كثير ٢١١/٢.

(٥) صحيح البخاري (كتاب الصلاة، باب ما يستر العورة) حديث رقم ٢٦٩، و(كتاب الحج، باب لا

يطوف بالبيت عريان) حديث رقم ١٦٢٢.

كما أبطل الله عز وجل بدعة أخرى من البدع المرتبطة بأعمال الحج عند بعض العرب في الجاهلية ، وكان الحمس يخالفون فيها وهي عند الأنصار خاصة؛ كانوا إذا حجوا فجأؤوا لم يدخلوا من قبل أبواب البيوت ولكن من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه فكأنه عُيرَ بذلك، فنزلت ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾^(١).

قال البراء رضي الله تعالى عنه: نزلت فينا هذه الآية^(٢).

وقد روى عدد جُمٌ من أئمة التفسير رحمهم الله تعالى في سبب نزول هذه الآية أن قريشاً كانت تدعى الحمس - وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام - قال الزهري: لا يبالون بذلك^(٣)، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام، فبينما رسول الله ﷺ في بستان إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر الأنصاري، فقالوا: يا رسول الله إن قطبة بن عامر رجل فاجر^(٤)، وإنه خرج معك من الباب، فقال له: ما حملك على ما صنعت ؟ (أي لم دخلت وأنت قد أحرمت ؟) قال : رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت، فقال له النبي ﷺ : إني أحمس، (أي من قوم لا يدينون بذلك)، فقال له الرجل : وأنا ديني دينك، فأنزل الله تعالى هذه الآية^(٥).

(١) سورة البقرة، آية ٨٩.

(٢) صحيح البخاري (كتاب التفسير، باب وأتوا البيوت من أبوابها) حديث رقم ١٨٠٣، وصحيح مسلم (كتاب التفسير) حديث رقم ٣٠٢٦.

(٣) تفسير الطبري ١٠٩/٢.

(٤) وعند ابن كثير «رجل تاجر» ٢٢٦/١.

(٥) انظر الواحدي، أسباب النزول ص ٥٢، وتفسير القرطبي ٣٤٥/٢، وتفسير ابن كثير ٢٢٦-٢٢٧.

ومما يلفت النظر هنا أن تلك البدعة كان الخلاف فيها بين الأنصار - وهم الأوس والخزرج، وقد رأينا الأزرقى سلكهم في زمرة الحمس - وبين قريش الحمس الفعليين ، مما يؤكد وجهة النظر السابقة التي ألمحنا إليها عند ذكر قبائل الحمس^(١).. ويلفت النظر هنا قول الرسول ﷺ : «إني أحمس»، حيث يظهر - والله أعلم - أن الرسول ﷺ لم يكن مخالفاً للحمس إلا في ما خرجوا به عن الهدى الصحيح، وما أرادوا به التزيّد على الآخرين في سبيل تحقيق مصالحهم الخاصة.

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى قد أبطل أمر الحمس جميعه في ما ابتدعوه من بدع وما فرضوه على الآخرين من آراء حين بعث الله تعالى رسوله وأظهر الإسلام، وأوضح سبحانه أن كل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله ﷺ فهو متعبد ببدعة^(٢).

وأخيراً فإن مما يختم به في نهاية هذا البحث الإشارة إلى بعض الملحوظات والفوائد التي يمكن أن تثبت هنا، ومن أولها أن القوى المتنفذة غير المحكومة بشرع الله سبحانه وتعالى عندما تتاح لها فرص البروز والاستعلاء على الآخرين لا تتأخر عن ذلك ولا تتنازل عنه، وأنهم عندما يبتدعون أموراً في الدين يراعون ما يحقق لهم مصالحهم الخاصة، وأهواءهم ورغباتهم دون اكتراث بالأطراف الأخرى، ولقد كان من المعوقات الرئيسة التي واجهتها دعوة الرسول ﷺ في عهدها المكي ما خلفته تلك المرحلة الأحمدية من ظلال على المجتمع القرشي؛ فلم يستطع مثلاً أبو جهل المخزومي المتسئم للسيادة أن

(١) انظر صفحة ٢٧٣ من هذا البحث.

(٢) انظر تفسير ابن سعدي ١/٢٣١.

يتصور نفسه مع بلال الحبشي رضي الله عنه تحت مظلة واحدة وفي ميدان واحد قد يبرزه فيه سابقاً.

وقد وقفنا في هذه الدراسة على شيء من أحوال الجاهلية متمثلة في تلك البدع الأحمسية، ثم رأينا فضل الله تعالى ومنته على عباده بما أبطل من التصورات والبدع الفاسدة، وما شرع لهم من طرق الخير التي يتوصلون بها إليه سبحانه متساوين حيث لا تفاضل إلا بميزان التقوى، لا حسب ولا نسب ولا مال يرفع من قيمة الإنسان إذا كان حائداً عن صراط الله المستقيم . ثم بيان عظمة هذا التشريع الإلهي الذي يحفظ للإنسان حقوقه وكرامته وعفافه وطهره بعيداً عن مزايدات المزايد وشهوات المبطلين .

المصادر والمراجع

= أحمد إبراهيم الشريف

* مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ ، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، القاهرة (د.ت).

= ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ)

* الكامل في التاريخ ، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٨٧هـ.

= الأزرقى، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد (ت ٢٥٠هـ)

* أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح ملحق، الطبعة الثانية، مطابع دار الثقافة، مكة المكرمة ١٣٨٥هـ .

= ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي (ت ١٥١هـ) .

* كتاب السير والمغازي، تحقيق د. سهيل زكار، الطبعة الأولى، دار الفكر،

بيروت ١٣٩٨هـ.

= الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين الأموي (ت ٣٥٦هـ)

* الأغاني، الطبعة الرابعة، دار الثقافة، بيروت ١٣٩٨هـ.

= البخاري، الإمام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل الجعفي (ت ٢٥٦هـ)

* صحيح البخاري، الطبعة الأولى، دار السلام، الرياض ١٤١٧هـ.

= د. جواد علي

* المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين،

بيروت، ومكتبة النهضة بغداد ١٩٨٠م.

= ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية الهاشمي (ت ٢٤٥هـ)

* المحبر، تحقيق د. إيلزه ليختن شتير، المكتب التجاري، بيروت (د.ت).

* المنمق في أخبار قریش، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، الطبعة الأولى، عالم

الكتب، بيروت ١٤٠٥هـ.

= ابن حجر، الحافظ أحمد بن علي بن حجر القسطلاني (ت ٨٥٢هـ)

* فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن

باز، دار المعرفة، بيروت (د.ت).

= د. حسين مؤنس

* تاريخ قریش، الطبعة الأولى، الدار السعودية، جدة ١٤٠٨هـ.

= ابن حنبل، الإمام أبو عبدالله أحمد بن حنبل بن هلال (ت ٢٤١هـ)

* مسند أحمد بن حنبل، دار الدعوة، اسطنبول (د.ت)

= أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي الغرناطي الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)

* تفسير البحر المحيط، وبهامشه (تفسير النهر الماد من البحر) لأبي حيان نفسه، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت ١٣٩٨هـ.

= الخشني، أبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود (ت ٦٠٤هـ).

* شرح السيرة النبوية، المكتبة الإسلامية، اسطنبول (د.ت).

= ابن خياط، أبو عمر خليفة بن خياط العصفري، (ت ٢٤٠هـ).

* تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، الطبعة الأولى، النجف ١٣٨٦هـ.

= ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (٣٢١هـ).

* الاشتقاق، تحقيق محمد عبدالسلام هارون، مؤسسة الخانجي، القاهرة ١٣٧٨هـ.

= د. رؤوف شلبي

* المجتمع الإسلامي قبل الإسلام، دار الكتب الحديثة، القاهرة (د.ت).

= ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني الأزدي (ت ٤٥٦هـ).

* العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين

عبدالحميد، الطبعة الخامسة، دار الجيل، بيروت ١٤٠١هـ.

= ابن سعد، أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣١هـ).

* الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت (د.ت).

= سعيد الأفغاني

* أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ١٤١٣هـ.

= السهيلي، أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله الخثعمي (ت ٥٨١هـ).

* الروض الأنف في تفسير السيرة لابن هشام، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد،

دار الفكر، بيروت (د.ت).

= سيد قطب

* في ظلال القرآن، الطبعة السابعة، دار المعرفة، بيروت ١٣٩١هـ.

= الصنعاني، أبو بكر عبدالرزاق بن همام (ت ٢١١هـ)

* المصنف، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي،

بيروت ١٤٠٣هـ.

= الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت ٣٦٠هـ)

* المعجم الكبير، حققه محمد عبدالمجيد السلفي، الطبعة الثانية، دار إحياء

التراث العربي، بيروت (د.ت).

= الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)

* تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن)، دار الفكر، بيروت ١٣٩٨هـ.

= عبدالرحمن بن ناصر السعدي

* تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مركز صالح بن صالح الثقافي

بعنيزة ١٤٠٧هـ.

= د. عبدالغني زيتوني

* الحمس وأحوالهم قبيل الإسلام، مجلة العرب، عدد ٣ و ٤ سنة ١٤١١هـ.

= ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)

* معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الثانية،

مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٩٠هـ

= الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد بن علي (ت ٨٣٢هـ)

- * شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت.)
= الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ)
* القاموس المحيط، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة (د.ت.)
= ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري (٢٧٦هـ)
* المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة (د.ت.).
= القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١هـ)
* تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث
العربي، بيروت ١٣٧٢هـ.
= ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)
* تفسير ابن كثير، دار الفكر، بيروت ١٤٠١هـ.
= مجمع اللغة العربية بالقاهرة
* المعجم الوسيط، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة.
= محمد عزة دروزه
* عصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة، الطبعة الثانية، دار اليقظة العربية،
بيروت ١٣٨٤هـ.
= المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ)
* مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق شارل بلا، الطبعة الأولى، بيروت
١٩٦٦م - ١٩٧٩م.
= مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (ت ٢٦١هـ)
* صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الدعوة، اسطنبول ١٤٠١هـ.

- = المقدسي، مطهر بن طاهر (ت ٥٠٧هـ)
- * البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة العربية، القاهرة (د.ت).
- = ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (ت ٧١١هـ)
- * لسان العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، (د.ت).
- = ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق (ت ٣٨٠هـ)
- * الفهرست، دار المعرفة، بيروت ١٣٩٨هـ.
- = الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري (ت ٤٦٨هـ)
- * أسباب النزول، تحقيق د. السيد الجميلي، الطبعة الرابعة، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤١٢هـ.
- = ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب (ت ٢١٨هـ)
- * السيرة النبوية، تحقيق همام عبدالرحيم سعيد ومحمد بن عبدالله أبوصعيليك، الطبعة الأولى، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن ١٤٠٩هـ.
- = اليعقوبي، أحمد بن ابن يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٨٤هـ)
- * تاريخ اليعقوبي، دار بيروت، بيروت ١٣٩٠هـ.